بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 52 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة لقمان**

التاريخ:19\04\2022 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني**

وصل الكلام إلى آية جديدة، وهي قوله: ﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِير﴾ وتم الكلام في هذه الآية بشكل مفصل.

الكلام فعلاً في الآية التاسعة والعشرين قال: ﴿أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِير﴾.

هذا المضمون تكرر في القرآن الكريم في أكثر من آية، ففي سورة الحج: ﴿ذلكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِير﴾[1] وفي سورة فاطر: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِير﴾[2] وفي سورة الحديد: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُور﴾[3] وفي سورة آل عمران غير التعبير، بدل يولج عبر تولج: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَتُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِساب﴾ أي: صار الخطاب، في الآيات الأخرى كان للغائب، وفي سورة آل عمران.

الملفت للنظر في هذه الآيات وما رأيت من ذكر هذه النكتة بمقدار تتبعي من علماء التفسير: أن تمام هذه الروايات المتقاربة معنى ذيلت بشيء متقارب في المعنى، لا يوجد بعضها ذيل –مثلاً– إن الله على كل شيء قدير، وبعضها ذيل أن الله عليم بذات الصدور، عليم بذات الصدور شيء، والله على كل شيء قدير شيء آخر.

---

[1] الحج 61
[2] فاطر 13
[3] الحديد 6

كل الآيات بمضمون واحد، وهذا المضمون الواحد يرتبط بأعمال العباد، الله على كل شيء قدير أعم قد يرتبط بأعمال العباد، ولا يرتبط بأعماله العباد.

أما أن يقال: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ فهذا يرتبط بفعل العباد أو يقال: ﴿ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ أيضاً يرتبط بأعمال العباد، وفي هذه الآية التي نبحث عنها أيضاً لها ارتباط بأعمال العباد ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وهذا سوف يؤكد على مطلب عن قريب يأتي.

هذه الآية التي نبحث عنها لا شك أنها بمقتضى السياق مرتبطة بالآيات السابقة، ما زال الحديث في سياق الكلام عن آيات الكون التي تثبت خالقية الله تبارك وتعالى وربوبيته وتدبيره، هذه الآية المباركة لها ارتباط وثيق بالتدبير، وهي أن هناك ظاهرة يشاهدها الإنسان بشكل دائم ومستمر، لكن -للأسف- في كثير من الأحيان الألفة على الشيء تفقد الالتفات إلى إعجازه، أنا وأنت كل يوم نأكل ونشرب ونتنفس، ولا نلتفت إلى المعاجز الكثيرة التي تحصل لنا في صورة الأكل والشرب والتنفس، كيف يعمل الجهاز الهضمي؟ كيف يعمل الجهاز التنفسي؟ كيف يساعد الأكسجين على الانتقال في الدم؟ كل هذه الأمور لكوننا قد ألفناها وتعودنا عليها نغفل عن حالة إعجازها.

هذه الآية المباركة تريد أن تذكرنا بإعجاز هذا الأمر الذي ألفناه، وأنه لا يمكن بوجه أن يكون حصل بدون مدبر.

ظاهرة الزمان المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحركة الكواكب وعلى رأسها الشمس، وفي المرتبة الثانية القمر، فيتولد من هذه الحركة ليل ونهار، ننظر إلى هذه الظاهرة، اليوم مقدار الليل متساوي مع مقدار النهار، غداً الليل يأخذ جزء من النهار، وبعد غد النهار يأخذ جزء من الليل، مرة الليل يمتد فيدخل على النهار ومرة النهار يمتد فيدخل على الليل، وبحركة دؤوبة مستمرة ومتجددة، ولأجل ذلك الآية عبرت بالفعل المضارع الذي يدل على الحدوث والتجدد، الاستمرار التجددي.

هذه الظاهرة على مدار عمر الإنسان يراها دائماً، اليوم الليل قصير غداً الليل طويل وهكذا، بمرأى منا لكن لا نلتفت إلى إعجازها، هل يعقل أن يكون ذلك بدون مدبر؟ لابد أن يكون له مدبر.

ثم نأتي إلى سبب هذه الظاهرة، وهي الشمس والقمر اللذان سخرهما الباري والخالق تبارك وتعالى في حركة دائمة مستمرة، وباعتبار أن الكلام عن سير كل من الشمس والقمر، وهو مستمر هذا السير وليس تجددي، فنلاحظ أن الله سبحانه وتعالى عبر بالفعل المضارع، وأنه شيء حصل، بكن فيكون حصلت حركتهما، فعبر بالفعل الماضي ولم يعبر بالفعل المضارع.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ نرجع إلى تلك النكتة التي ذكرناها: عادة في مثل هذا التعبير قد يأتي إلى الذهن أن الذي يناسب أن نقول: أن الله على كل شيء قدير، يتصرف في الزمان، يتصرف في الكواكب، هذا مظهر من مظاهر قدرته، من مظاهر عظمته، من مظاهر عزته، أما أن تأتي الآية وتقول: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

هنا علماء التفسير بحثوا بحثاً تجزيئياً، أي: لم يلتفتوا إلى النكتة التي ذكرتها، أن هذه الظاهرة وهذا التذييل موجود في كل الآيات التي تقارب هذا المعنى، في الآية الواقعة في سورة آل عمران قال: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ والآية الواقعة في سورة الحديد: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ وهي قريبة جداً من قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ هذه الظاهرة ككل ينبغي أن نعالجها.

في هذا الموضع الفخر الرازي أشار إلى نكتة مفادها: في الآية السابقة قال: ﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ لما أشار إلى البعث، والبعث يكون لأجل الحساب، والكفار كانوا يقولون: ﴿وَقالُوا ما هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلاَّ الدَّهْرُ وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾[4] فينكرون وجود البعث، فبما أنهم أنكروا وجود البعث، والبعث يكون للحساب، فمن المناسب حينئذ أن تذيل هذه الآية بقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ الأمر المرتبط بالحساب[5].

إذن هذا التبيين جاء لأجل ذكره البعث، وهذا كما نلاحظ نظرة تجزيئية للبحث، ولم يلتفت إلى أن كل الآيات التي من هذا القبيل بهذا الشكل ذيلت، فلابد من وجه أدق من هذا الوجه يستوفي الجواب عن تمام هذه الظاهرة.

---

[4] الجاثية 24

[5] اقتباس مع تصرف من التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ج 25 ص 129

والذي استقربه من استنطاق الآيات المتعددة أن تكون النكتة الكلية باعتبار أن الزمان عند الإنسان هو ظرف لأعماله، هذه وظيفة الزمن، الزمان ظرف العمل، فهو في هذه الآيات يتكلم تبارك وتعالى عن الزمان في إطار إبراز خالقية الخالق وتدبيره، وهذا التدبير المرتبط بالزمان الذي هو ظرف لفعل العباد، بما أنه ظرف العباد مضافاً إلى هذا التعبير الله ﴿عَليمٌ بِذاتِ الصُّدُور﴾ والله ﴿بِما تَعْمَلُونَ خَبير﴾ فالباري وضع الزمان الذي يمثله الشمس والقمر، تسخير الشمس والقمر الذي يمثله الليل والنهار الناتج عن حركة الشمس والقمر، وضعه لأجل أن نعمل فيه، كما جاء في الخبر: (إِنَّ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ يَعْمَلَانِ فِيكَ فَاعْمَلْ فِيهِمَا)[6] فهذا حينئذ يحتاج بالدرجة الأساسية إلى لحاظ عمل الإنسان، هذا الزمن دوره دور الآلية، دوره دور المرآتية، الشيء المهم هو أن نعمل في هذا الزمن، فلأجل ذلك لاحظنا أن تمام هذه الآية التي تتكلم عن هذا المضمون ذيلت بشيء يرتبط بعمل الإنسان؛ لتكون النظرة إلى الزمن نظرة مرآتية لا نظرة موضوعية وذاتية.

هذا ما نفهمه من تكرر هذا المضمون في هذه الآيات.

[6] عيون الحكم و المواعظ (لليثي)، ص: 144.